

# أدب القوة وأدب الضعف

للاستاذ أحمد أمين

يبايعوا جارية مغنية ، ويحدث عبد الله بن مصعب هذا عن نفسه فيقول : إذا غنتي هذه الجارية .

حسبت أنى مالك جالس حفت به الأملاك والموكب  
فلا أبالي واله الورى أشرق العالم أم غربوا  
أما المنصور فنجح وأسس ملكا ضخما ، ووصل إلى هذا  
النجاح بقوته وحزمه ، لذلك كان أحب شعر إليه . شعر القوة  
والعظمة والحمية .

\*\*\*

يخيل إلى أنا إذا القينا نظرة عامة على الأدب العربي من هذه الناحية رأينا الأدب الجاهلي قويا — كجهد صخر حطه السيل من عل — حماسة قوية ، وفخر قوى ، بل وغزل قوى ، والأدب الاسلامى إلى آخر العهد الأموى ، أدب قوى ، فيه عزة الفاتح ، وأعجاب الناجح ، ونشوة المنتصر ، وإن كان فيه نعمات ضعف فنمات الحزب الذى غلب على أمره ، أو المحب الذى يئس فى حبه ، أما من عدا هؤلاء ففخر وأعجاب ، وهجاء فى أعلى درجات القوة

فاذا نحن انتقلنا إلى العصر العباسى رأينا العزة العربية تأخذ فى الضعف ، ورأينا الانهماك فى اللهوى يبعث أدبا جميلا فى فنه ، ضعيفا فى روحه ، فيقول رئيس المجددين فى عصره بشار بن برد :

قد عشت بين الريحان والراح وال مزهر فى ظل مجلس حسن  
وقدملات البلاد ما بين قفقو ر إلى القيروان فالين  
شعرا تصلى له العواتق وال شيب صلاة الغواة للوثن  
وتوالت النكبات على الشرق من ظلم وجور وسوء فى كل نظم  
الحياة الاجتماعية فكان الأدب العربى ظل هذه الحياة — كان أدبا  
ضعيفا ، إن أنت حصرتة وجدته بين باك على مصائب الدهر كأبى  
الملاء ، ومادح للولاة والأمراء والأغنياء . ومستهتر يصف استهتاره  
وصفا أنيقا بديما يرضى الفن ولا يرضى الروح ، وما اخترع  
من النون كان من هذا الضرب ، مقامات للبديع والحريرى  
بنيت على التسول والاستجداء ، وإفراط فى الجون ، أو  
إفراط فى التصوف ، وكلاهما فرار من حياة الجد — والنثر حمل

يروون أن جماعة من آل الزبير كانوا يجتمعون إلى مغنية فيسمعون ويظربون . حتى إذا استخف الطرب أحدهم ( وهو عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ) قال فيها :

أحلف بالله يميناً ومن يحلف بالله فقد أخلصا  
لو أنها تدعو إلى بيعة يأيها ثم شقت العصا

فبلغت هذه الأبيات أبا جعفر المنصور فدعاه إليه وعنفه على قوله ، وعيره بضعف آل الزبير من هذه الناحية إلى أن قال له « حتى صرت أنت آخر الحمقى تباع المغنيات ، فدونكم يا آل الزبير وهذا المرتع الوخيم ! »

وسخر المنصور من هذا الضرب من القول ، وهذا النوع من الحياة ، وقال إنما يعجبني أن يمدى لى بهذه الأبيات :

إن فتانى لنبيع لا يؤيسها  
غمز الثقاف ولا دهن ولا نار

متى أجر خائفا تأمن مسارحه

وإن أخف آمنا تقلق به الدار

هذه القصة تمثل نوعين من الأدب : فنوع يصح أن تسميه أدبا رقيقا ، وإن كنت أشد صراحة فسمه أدبا ضعيفا أو أدبا « مائما » كما يصح أن تسمى النوع الثانى أدبا قويا أو أدبا وصيئا .

ولست أعنى بالضعف أو القوة ضعف الأدب أو قوته من الناحية الفنية ، وإنما أعنى ضعفه وقوته من الناحية الخلقية والاجتماعية ، فقد يكون هذا النوع الذى أسميه ضعيفا أو مائما فى منتهى الرقى من الناحية الفنية ، كما قد يكون الأدب القوي ليس قويا بالمقياس الفنى .

وهذه القصة تمثل لنا أيضا أن الأدب المائع والقوى أثر من آثار الحوادث والظروف ، فقد فشل آل الزبير سياسيا ولم تتحقق مطامعهم . فاستولى عليهم اليأس وانصرفوا إلى اللهو وانسوا بالسماع وما إليه واحتقروا الخلافة حتى ليهمون أن

كل انواع الزينة من سجع وبديع ، فكان كالثقاة تسرف في  
التجميل الصناعي لما شعرت بنقصان جمالها الطبيعي

ولم يظفر العالم العربي من العهد العباسي الا بأفراد قلائل  
منحو من القوة في أدبهم ما كان موضع الاعجاب كالمتمني  
والبارودي ، وكلاهما كانت قوته صدى لحياته ، فالمتمني فارس  
شجاع كان في أكثر شعره يسجل وقائع سيف الدولة مع الروم ،  
ويدون مظاهر القوة والفروسية ، والبارودي كذلك رب سيف  
وقلم ، فكان قلمه مسجلاً لآثار سيفه ، وقليل كان أمثال هؤلاء .  
والأفخبرني عن شعر البطولة والفروسية والحياة والقوة  
بعد ، وأين الشعر الغنائي الذي صدر عن شعور بالعزة القومية  
في الادب العربي ؟ — ليس عجيباً أن نرى شعر البهاء  
زهير وقد كان في أسمى منصب من مناصب الدولة  
وكان مشرفاً على الحروب الصليبية ومساهمًا في تدير شؤونها  
لا يذكر لنا في شعره شيئاً من أغاني الفروسية ، ثم ينصرف بكلمة  
إلى الغزل المائع . على حين أن الصليبيين خلفوا لتوهم أغاني  
وأشعاراً صليبية قوية ، ولم يخلف لنا الادب العربي في هذا  
الباب إلا ما كان تافهاً ضعيفاً — لعل السبب في هذا أن  
المسلمين كان موقفهم في هذا موقف دفاع لا هجوم « وماغزى  
قوم في عتر دارهم إلا ذلوا »

\*\*\*

وبعد ، فكل عاطفة من عواطف الانسان — على كثرتها  
وتعددتها — موضوع للأدب ، وخير الأدب ما انبعث عن  
عاطفة صحيحة لا مريضة ، فالشعر المنتهى في وصف  
ما يلاقى الحب من عذاب والذي يذوب رقة وحناناً ليس — في  
نظري — مؤسساً على عاطفة صحيحة كالذي في شعر العباس بن  
الأخنف وأمثاله ، وهذا الشعر وإن أرضى الجمهور ولد لهم هوى  
كثير من الأحيان أجوف ، وهو في كثير من الأحيان نتاج  
عاطفة مريضة . وليس من الحق أن يبيع الانسان عواطفه بهذه  
السهولة — والشاعر المجيد — هو الذي يثير العواطف بقدر ،  
ويبينها على أساس عميق ، أما إن هو تغالى في ذلك وأثار عواطف  
حادة لأسباب واهية كان أدبه أدباً خفيفاً ضعيف القيمة مهما  
استلذه الناس وأعجبوا به .

هناك عواطف حنان ، وعواطف إجلال ، وعواطف جمال  
وعواطف قوة ، وهناك ما يثير الحزن ، وما يثير السرور ،  
وما يثير الشهوة ، وما يثير البطولة ، وما يدفع إلى المجد ، وما  
يدفع إلى اللهو ، وكلها صالحة للأدب ، وكلها في نظر الأدب  
— واه — ران اختلفت قيمتها في نظر الأخلاق ، ونظر دعاة الاصلاح ،  
فالأخلاق يرى أن الأدب الذي يثير لذة حسية أقل رقياً من  
أدب يثير شعوراً أخلاقياً كالأعجاب بالبطولة ، واحتمل الآلام  
في سبيل أعمال جليلة — وأرقى الأدب في نظرنا ما أحيا الضمير  
وزاد حياة الناس قوة .

وأغرب ما في الأمر أن أدباءنا الذين انتفعوا بالأدب الغربي  
وعملوا على نقله إلى الأدب العربي أفرطوا في نقل هذا النوع  
من الأدب المائع وفرطوا في نقل الأدب القوي ، وسبب ذلك  
أنهم جاروا ميول الجمهور وساروا رغباته فكانوا تجاراً أكثر  
منهم قادة ، والجمهور إنما استلذ هذا النوع لأنه من قديم ألف  
البكاء ، وكانت حالته الاجتماعية تدعو اليه ، ولأنه ترك جده  
على كاهل غيره ففرغ للهو .

وكان هذا النوع من الأدب أضر بالشرق من ضرره  
بالغربي ، لأن الغربي عنده بجانب هذا الادب الضعيف أدب  
آخر قوي ، فاذا بعث الأول حناناً ورقة ، بعث الآخر قوة  
وجلداً ، فتمادلت حياته وتغذت نواحي عراطفه . أما الشرق  
فليس له تراث حاضر من أدب قوى يسند ضعفه ويحيي نفسه —  
وسبب آخر وهو أن الشرق — على العموم — ذو عاطفة أجد  
وهو لها أقل ضبطاً ، فاذا نحن غديناه دائماً بهذا الأدب الحاد  
زادت عواطفه ميوعة — مع أنه أحوج ما يكون إلى ما يقوى  
عاطفته ويضبط جموحها .

\*\*\*

الحق أن الأدب عود ذو أوتار ويجب أن تكون أوتاره  
على نظام ما عند لانسان من عواطف جدية وهزلية ، ورقيقة  
وقرية ، وضاحكة وبأكية ، ورخيصة وغالية — والعود الذي  
يوقع عليه الأديب الشرق ناقص الأوتار ، تنقصه الأوتار القوية  
والأوتار التي تبعث الحياة ، والأوتار التي تبعث الضحك ليتلوه